

رسالة الى الدكتور النويهي

بقلم ذو النون أيوب

سيدي الدكتور محمد النويهي المحترم ،

كان بودي ان تكون هذه الرسالة شخصية بيني وبينك ، فحسب دون ذلك جهل الصوابين ، وكانت مجلة الآداب الواسطة ، مرة أخرى ، ولها الشكر . اني من المتسمعين للنقاش الدائر بينك وبين الادباء الافاضل ، حول ردود الفعل في الحركات الاجتماعية الطائفة ، التي دفعت البشرية الى الامام كالاسلام والاشتراكية ، ونظرية التطور ، او النسوء والارتقاء . كما كانت تسمى في مطلع هذا القرن . وما خفي على عدم تعصبك لمذهب خاص ، عند الاخذ به ، او الاسترشاد بهداه ، وما كنت اعجابي بطراز تفكيرك ، في الرسائل المتبادلة بيني وبين الدكتور سهيل ادريس ، حتى اني وضعت في رأس قائمة الكتب التي طابت ان يجهزني بها ، كتابك عن بشار ، ولو علمت ان لك دراسه اخرى عن ابي نؤاس ، لاضفته الى القائمة ، ومثيت نفسي بالاستفادة من مفكر عربي جديد ساتلمذ عليه ، فانا لم اجد نفسي قد استمكنت المعرفة ، ولن اعتقد بنفسي ذلك حتى الموت . ولا تلومني لاني لم اعرفك قبل الآن فقد انقطعت عن عالم العرب ، ودنيا الادب ، طيلة عشر سنين ، قضيتها بين نفي وتشريد وامراض كادت تجهز علي ، ولذلك قصة لا مجال لها هنا ، وكان من اهم عناصر هذه المسألة ، الصراحة ، التي نوهت بها في الرد علي ، واثت بين معجب ومساء . لقد رايت يا استاذي كيف بدأت دفاعي عن بشار ، بقولي انني اكره الاخذ والرذ والجدل الذي اعتاده الادباء ، وقلت بانني سادلي بحججي على طريقتي ، وقدمت للقراء آراء ، رأى فيها الدكتور ادريس ما يستحق النشر في مجلته المحترمة . ثم جاء تخطيئك المكرر لي بقولك اخطات ، واخطات ، واخطات . وقد اكون مخطئا ، ولكني لم اقتنع بهذا الخطأ ، ولست مكابرا . ولم اوجه لك هذه الرسالة لاعيد ما قلت وتعيد انت ما قلت . فذلك عبث لا طائل تحته . ولكنني احببت ان اعترض على صفة او بضع صفعات ، وشدات اذن ، استقبلت بها تلميذك الجديد . على طريقة التربية القديمة .

قلت يا استاذي : ان الشيطان قد يستشهد بالانجيل . فلسنت شيطاننا وقد استشهدت بايات قرآنية او نصوص ادبية للتدليل على ان تزمنا تجاه المرأة ، وفي وضع القاييس الاخلاقية ، كل ذلك ، دليل انحطاط وجهل وتاخر ، وان لا علاقة لذلك بالدين ، ولا بحضارتنا القديمة ، وما قلت « لا تقربوا الصلاة » ثم سكت عن اكمال الآية . فلسنت اشبه ابا نواس من هذه الناحية وقد استشففت غيظك مني عندما عثرت بالباء النابية جدا في الآية الكريمة . وصدقني يا استاذي بانني عثرت بها ايضا ، وكنت انكفء . ولو كنت انما قائل الآية ، لا الله تعالى ، لما ارتكبت مثل هذه الفاطنة الواضحة . اتري من اسلوبي اني من هذا النوع ؟ ولست بحاجة الى المراجع في هذا الباب . الم تدرك انها غلظة مطبعية ؟ وما اكثر ذلك في كل مجلة عربية ، لقد حذف لي الدكتور ادريس ابيانا وردت في دفاعي عن بشار ، ولعله رأى فيها ما يتنافى مع الآداب العامة ، فلم اعترض ، بل شكرته على عنايته . ولو كانت الباء من شطحات القلم ، لما فانت عليه ، وهو اديب ، لا تخفى عليه امثال هذه الشطحات . ولكنها وجدت لها فرصة لغرقة اذن . وانا تلميذ يحتمل ذلك .

وما كان قصدي عندما استشهدت بفصل الجنس عن الاخلاق في اوربوا ، ونوهت بما يسمى بالثورة الجنسية فيها ان ادعو الى مذهب خاص ، او اني انتصر للحرية الجنسية التي قاربت حسد الاباحة ، وما يعقبها ، وقد نوهت بالخطر الناجم عن ذلك . بسبل ذهبت الى ان حضارة العرب ، في عهد بشار ، كانت فسي العالم

الذي عاصرها ، كحضارة اوربوا بالنسبة لنا الآن . ولكل حضارة ، انطلاقات قد تصل الى حد التطرف . ولذلك علاقة بالحكم على بشار . ولم تكن بكل ذلك ، بل مضيت تسالني عن رأيي في تبادل الزوجات او الزوجات الى غير ذلك . وكانني اصبحت حجة في «البورنوغرافي» . مهلا استاذي . لا انكر اني لا اشمئز من سلوك يصدر عن فئة او مجتمع من البشر ، بل انظر اليه نظرة الدارس المحلل المستكنه ، وهذا من اثر نشاني ودراساتي العلمية . فقد كنت ممن يعتبرون العلم جسدا ، والادب هواية لملء الفراغ ، وهذا ما جعلني اذهب الى ان كل اديب ، او باحث في الادب لم يطلع على العلوم ولو بالمقدار الذي يسمى فسي اوربوا (معلومات عامة) يقع في اخطاء جسيمة ، وما كان اجداننا يفرقون بين العلم والادب في دراساتهم .

واذا اردت يا استاذي مرشدا او رايًا وفي هذا الموضوع ، فعليك بملء النفس وبفرويد وبالذكورة ماري ستوبز ، وآرائها المشهورة في الزواج في مطلع هذا القرن . وعليك بمؤلفات القاضي لينسي الاميركي وآرائه في الزواج التجريبي . او زواج التجربة ، بالاضافة الى آراء الدكاترة وعلماء الجنس وهم كثيرون في اوربوا . وما انا من ذوي الاختصاص في هذا الباب .

ولا ادري كيف توهم استاذنا الدكتور بانني عنيت بالاشارة الى رأي الماركسيين بتحرير الجنس عند سيادة الاشتراكية ، بانني قصدت الاباحية ايضا . الامر واضح يا استاذي . لقد قصدت تحرير الجنس من العبودية فما زال الجنس عبدا للمال والجاه والسطة ، لا حرا يخضع للرغبات الصادقة المخلصة . ولقد قرأت كيف مضيت تنفي وجودك شذو او خلاعة في الدول الاشتراكية او الشيوعية ، فلا صور غارية ، ولا .. ولا .. ولا .

واقول لاستاذي ان ما ذكره موجود في مصر ، وموجود في كل بلد عربي مهما تعصب وتزمت كوجوده في السمول الاشتراكية او الشيوعية . لقد رايت صور العريضة الجنسية تهرب الى جيوسولفوكايا مثلا ، يهربها السياح انفسهم ، ثم يمضون يستسخونها بالتصوير ويبيعونها في السوق السوداء باسعار عالية ، ان امثال ما ذكرناه موجودة في كل العالم ، ولا علاقة لانظمة الحكم في هذا الباب ، فلا هو تقصير من الاشتراكية ، ولا هو تشجيع من الرأسمالية . ان شئت ان تسميه مرضا فسمه ، وانا معك . انه كالاستمناء الذي يندر ان ينجو منه انسان - وقد تنعاطه بعض الحيوانات .

وما قصدت عندما ذكرت المعرضات على العمل الجنسي ، وما يعقبها من الزلل او السقوط في الخطيئة ، ان احقر من الحسب المتسامي ، الذي قد يخرج عن الدافع الاصلي له ، وهو التمهيد للاتصال الجنسي . فيصبح عشقا افلاطونيا ، او حبا ربانيا ، لا علاقة له بالجنس اطلاقا . بل تكلمت عنه كما يتكلم الدارس بالاسلوب العلمي ، اي كما تكلم مؤلف كتاب القرد العاري The naked ape

فدرس الانسان باعتباره فصيلة من القردة العليا التي يتجاوز عددها 19. فصيلة واظهر مبلغ انحرافه عن الطبيعة في سلوكه الجنسي . وقد كان بودي ان اقدم تلخيصا لهذا الفصل منه للآداب ، ولكنني اترك ذلك للظروف . ولعل من هو اقدر مني سيقوم بذلك .

لقد قدمت الى لبنان قبل شهر فصعدتني حامية الحدود عنن دخوله ، وما زلت اجهل السبب (**) . وكانت اقرب مدينة طردت اليها طرطوس . ودفعني الملل ، ملل انتظار مرحمة عفو عن ذنب انا واثق بانني لم ارتكبه ، بحق لبنان ، الى زيارة مخازن بيع الكتب وعثرت فيها على قصة جديدة لم اسبق بها لنجيب محفوظ « السراب » قصة شاب تربي بتدليل ام ما كان لها هدف في الحياة سواه . وعشق فتاة عشقا مبرحا واستطاع الزواج بها ، ولكنه عجز عن القيام بواجباته الزوجية ، مع انه كان يستطيع ان يفعل ذلك مع نساء يقلل عنها جمالا . ولا يتمتعن بمثلة الحب المرح التي خص بها زوجته . وماتت الزوجة اثر عملية اجهاض قام بها رجلها الحقيقي - دكتور - وتكشفت الحقيقة امام المسكين . حقيقة الحياة بكل ما فيها من متناقضات وبشاعة . وما كان ابرع محفوظ في ذلك التصوير والتحليل . لا اعلم

(**) ملاحظة التحرير : سمح للاستاذ ذو النون بعد ذلك بدخول لبنان .

كم نمت قصته هذه الى واقع الحياة في مصر ، ولكني موقن ان نجيب محفوظ لا ينطق عن الهوى . وما سقت هذه الحادثة الا لملاقتها بما نحن فيه .

ومن غريب الصدف ان اعثر على كتاب المرحوم المازني عن بشار في نفس المكتبة . وقرأته بلهفة .

لقد وصف استاذي الدكتور النوبي اسلوبه بالمرح . ولو علم تاريخ حياتي ، اديا ، لمعجب ان اكون مرحا ، ولكني واثق وهو من المؤمنين بالتحليل النفسي في ابحائه وتحليلاته ، بان ذلك غير مستغرب عنده . فالمرح تنفيس او تعويض عن الام الواقع . تذكرت هذا بعد الانتهاء من كتاب المازني . وقد اكد فيه على ان بشار كان يهوى الجمال والشباب ، وكان يجلس للنساء مجالس ادب ، فيستغرن منه ومن قبحه ، بل وان احدهن عيبت به بعد ان غازلها ففادته الى منزلها وبهونة زوجها وضعت يده ، عندما اراد اللبس ، بدل النظر (على شيء اشد من الحديد) فطار صوابه وحلف الا يعود لمثلها . وقلت ل نفسي ما اجدر بشار ان يتباهى بالانتصار على الصبايا في سن الزهور ، ليعوض تلك الخيبة القاسية في واقع حياته ، ويكون ذلك بالتباهي بما ليس فيه . كالتصيدية مثار الجدل . ما اقول استاذي ؟ اني اقدم اليك بهذا الراي حذرا ، خوفا . من كفضة على رأسي هذه المرة .

وختاما ارجو من الاستاذ ان يرفق بتلميذ جديد له عناد الحمار وصبره ، وارجو ان يكون ايضا حي هذا كافيا لدفع التهم والشبهات . ويوم اعرف عنوان الدكتور ساسعي الى تلقي الدروس منه بالمراسلة ، فما كل ما يعرف يقال ، وما يصدق على الاديان ونشوتها وتطورها ، يصدق على الجنس وخفاياه ، مما لا يمكن بسطه على صفحات الجرائد والمجلات ، والنفاق ، كما يبدو لي ، لا مناص منه في هذا الباب ، ما دامت الحرية المطلقة في الابحاث العلمية والادبية والسياسية والاجتماعية محدودة عندنا بسدود وقيود .

ذو النون ايوب

مع بلند الحيدري و ((اهل الكهف))

بقلم معد الجبوري

قبل ان اسجل ملاحظاتي حول ما كتبه الاستاذ الشاعر بلند الحيدري عن قصيدتي ((اهل الكهف)) في تقده لقصائد العدد التاسع من الآداب ، المنشور في العدد العاشر منها . اريد ان اتني على الجهد الذي بذله في تحليله العميق لقصائد العدد ، وملاحظاته القيمة عن الشعر الحديث .

اشير - اولا - الى ان الاستاذ لم يتعامل مع قصيدتي ككل ، بل دخل اليها من جانبي المضمون والشكل ، وان لم يصرح بذلك . واشير - ثانيا - الى انه لم يحاول ان يربط بين هذين الجانبين .

يقول الاستاذ : ان الشاعر ((لم يستطع ان يهب عمله بعدا جديدا يحمل الاسطورة من حيزها القديم الى حيز جديد)) ثم يفهم القصيدة على انها ((محدودة بالكلب الذي يحرس الكهف والملك الظالم ، وهما بما يعينان او يرمزان اليه عبر اي عصر من العصور وبالكيفية التي جاء بها سقط متاع ...)) . ولو عدنا الى ((اسطورة)) اهل الكهف نجد الكهف ملجأ للخلاص لم يختره اصحاب الكهف ، ونجد اهل الكهف رجلا مؤمنين ضرب الله بهم مثلا لدى وقوفه مع الحق ، فهم راضون بمصيرهم مقتنعون به . ونجد الكلب في الاسطورة ، الحارس المرعب ، والدليل المادي على وجود هؤلاء المؤمنين احياء ، والملك الظالم يبقى ابدا الجانب المخدول في الاسطورة .

واعود الى القصيدة ، فاجد الكهف منفي اختياريا ، هو الغياب .. العصر .. انسان العصر ، اما اهل الكهف فهم المنفيون ، ولبس الكلب الا صوت الغياب الوحيد الذي تبقى حاضرا بنجاحه غيبر الجدي ، والملك - بما يرمز اليه في القصيدة - هو الجانب المنتصر دائما ، هو المصير ، وهو الكهف نفسه .
.. ومنك اليك نهر .

لم نتم في الكهف يوما واحدا او بعض يوم ، كنت انت الكهف ...

واضح بعد هذا ، ان القصيدة لا تنقل الاسطورة بايحائها التاريخي ، وهي ليست ((استعارة ضيقة الاق)) . فكيف اذن لم احملها الى حيز جديد ، ولم اصف شيئا ؟
ثم يرى الاستاذ الناقد ان الزمن في القصيدة ((ظل على ما كان عليه كما متخرا)) ، واقول : اني رايت (الغياب) نفييا في الزمن والعصر والانسان ، والنفي موقف الشكل ((المتخثر)) التكويد على ذاته ، وما دام النفي داخلا في الزمن ، فالزمن في الغياب ((متخثر)) بغض النظر عما توحيه الاسطورة ((لاي عابر سبيل)) وما اوحته للحيدري من ان الزمن فيها كم متخثر ، ولاهل الكهف يوم او بعض يوم .

هذا عن الصورة الاولى - صورة الغياب . اما الصورة الثانية ففيها يحلم المنفيون بتحررهم من الكهف ومن الزمن ، فتتساقط الجدران ، وينفثون فوق ارض الله .. ثم يكتشفون ان دقيانوس - الظلم ، هو ملجؤهم ومنفاهم ، وانه هو الكهف الحقيقي .
اذن ، فرؤيا اهل الكهف تسقط الكم الزمني التراكم وتتجاوزها الى المستقبل . اليس في هذا اضافة جديدة الى الاسطورة ؟ .

ويرى الناقد ان لا القصيدة جاءت ثقيلة على السمع تلهت وراء تفعيلاتها المروية)) وسبب ذلك يعود الى ((اني اكتفيت بالقوافي الخارجية في نهاية كل مقطع)) ، واسال الاستاذ : هل في تكرار التفعيلة نقل على السمع ؟ وهل السبب الذي ذكره قطعي ومقتنع ؟ اعتقد ان الحيدري لا يرضى ان يعمم رايه هذا على الشعر الجديد ، فنحكم على قصيدة فيها ما ذكره ، بانها ثقيلة على السمع . ثقيل القصيدة على سمعه جاء - برأيي - من قراءته الخاصة لا اكثر .

بعد ذلك يتحفنا الحيدري بشيء من بلاغته عندما يقول : (وفي غير موضع بنقلت الزمام ويزوغ البحر عن جادته ...) دون ان يشخص تلك المواضع التي اتخذ منها جسرا للعبور الى تعميماته على الشعر الجديد .

بقي ان اعترف باهمية ملاحظته الاخيرة التي قال فيها : ((اعرف اني اسأت لآخوة بررة يحاولون ان يجدوا انفسهم في العصر اداء وادراكا وانهم يبحثون عن لغتهم الخاصة ضمن لغة العصر وان من حقهم ان يقولوا الشعر بمقاييس جديدة ولتأكيد مفاهيم غير التي الفنا)) . اعترف باهميتها لان الحيدري ادرك انه اساء ، ولاني ادرست ان اساءته ربما كانت بسبب المقاييس الجديدة والمفاهيم التي لم يالفها . تحياتي للناقد الفاضل ، ولقراء الآداب الغراء .

معد الجبوري

الموصل (العراق)

الاصالة والتجديد وتحديات العصر

بقلم احمد يوسف داود

اذا استثنينا مقال الدكتور علي الراعي الذي هو ملاحظات تاريخية لتطور المسرح ، فان جميع الابحاث التي نشرت في الآداب عدد تشرين الثاني الماضي ، كابحاث مقدمة لما دعي بمؤتمر ((الاصالة والتجديد)) في الجامعة العربية تنطلق من منهج فكري واحد ، سكوني في جوهره ومعانيه مع اختلاف ما بين هذه الابحاث في القيمة (منظوروا الى كلمة القيمة من منظور تقديم المنهج بشكل متكامل يصل الى مستوى التنظير) . فبينما يتناول الدكتور عياد موضوع تحديد الدلالات لكلمتي الاصالة والتجديد ، يتناول الدكتور عفت الشرفاوي موضوع التفسير العلمي الجديد للقرآن وبينما يعالج الدكتور احمد هيكل قضية الشعر المعاصر فان الدكتور زكي نجيب محمود والسيد محمد الزالي ينظران لقضية الاصالة والمعاصرة ، منتهيين الى ضرورة ((عفش)) حركة التقدم خوفا على ايمان الانسان العربي وربما على لحيته ومسبحته ايضا !

ولنبدا بالقصة من اولها فان لها ارتباطا بمؤسسة مستحدثة تكاد تدخل ضمن المقدسات العربية التي لا يجزؤ احد على لمسها انها مؤسسة الجامعة العربية !! ومع ان مناقشة قضية الجامعة هنا ليست

من عملنا الا اننا لا نستطيع ان نبدأ القصة الا منها بحكم انها صاحبة الدعوة الى المؤتمر الجيد !

ففي ذات يوم من عام ١٩٧١ وكان قد مر ثلاثة وعشرون عاما على تكة فلسطين واربعة على تكة حزيران وكانت الجامعة قد ساهمت ما ساهمت في ستر المتأمرين وتميع غضب الجماهير وتزييف الامور عليها ، حتى انكشفت المهزلة في خلق هذه الجامعة وحياتها فاسقطتها الجماهير من حسابها ونسيتها ، ونمت حركة التقدم العربية وتصدت واصبحت خطرا على كل ما هو رجعي في الوطن العربي .. بل اصبح الصراع معها مصيريا ..

في ذات يوم من ايام عام ١٩٧١ وكان قد حدث كل هذا بادرت الجامعة من جديد لاستلام « مهمتها » فدعت الى مؤتمر يخطط فيه للاصالة تخطيطا يبق « رسن » التقدم في ايدي السادة الكبار ، فهذه الانجازات الادبية والفكرية الجديدة قد اصبحت لا تحتمل . ولم يبق الا التلويح بمصا الاحاد في وجه المارقين ..

وساكتفي بالرد على مقال الدكتور زكي نجيب محمود فهو كما يبدو منظر المؤتمر !

انه يريد تحديد الهيكل العام للثقافة العربية اولا ليعالج فيما بعد التحدي الجديد الذي تواجهه هذه الثقافة . وقبل ان النخص افكاره لا بد من الاشارة الى ان الدكتور يعتبر الثقافة - كما يظهر من مقالته بشكل عام - تشكلا موجودا خارج السياق التاريخي لتطور المجتمع ، ان لها وجودا قريبا سابقا عليه ، ولذلك فهي لم تتأثر به ولا ينبغي لها ان تتأثر به ! ان « صميم الثقافة العربية - لا فرق في ذلك بين قديمها وحديثها - هو انها تفرق تفرقة حاسمة بين الله وخلقه ، بين الفكرة المطلقة وعالم التحول والزوال (يرجى الانتباه لكلمة الزوال) .. على انها تفرقة لا تجعل الوجودين على مستوى واحد بل تتخذ من عالم الحوادث رمزا يشير الى عالم الخلود .. » هكذا « ينظ » صميم الثقافة العربية خفيفا مرنا فوق علاقات الناس وحياتهم وتطورهم متنمعا بالتفاته الدائم الى عالم الخلود دون ان يحفل كثيرا بهؤلاء الزائليين كانهم ليسوا هم الذين يبدعون الثقافة وليسوا هم الذين يستفيدون منها قبل كل شيء !

وباعتبار ان امور الثقافة كانت « على ما يرام » طيلة العصور الماضية ، « رغم هبوب بعض الريح » ، فان القضية لا تبدأ الا في عشرينات هذا القرن ، وعلى ضوء ما جرى بعدها يصل الى ان الرجعيين هم « الذين يلوثون بالمبادئ نفسها .. وبالصورة نفسها التي ميزت الثقافة العربية الكلاسيكية واما التقدميون فهم « الذين يدودون لو بتروا الصورة من جذورها » !

وهيكل الثقافة العربية في نظره ، ثابت نظرا لثبات القيسم « فليست معايير الانسان التي يحتكم اليها من صنعه بل هي مفروضة عليه وهي انما فرضت عليه لانها بمنزلة « الحق » الموضوعي الذي لا قبل للانسان ان يغيره ويحوه » ! ومتى عمم هذا « الحق الموضوعي » على كل معايير السلوك فان كل خلجة للانسان او حركة تخضع لنفس قبلية هذه القيم وفوقيتها وتصبح قيمة الانسان منحصرة في انه يتم عبره تحقق هذه القيم دون ان يكون له اي اثر او تأثير .. فتمسة غاية نهائية هي النقطة المشتركة التي تنتهي اليها حركة هذه الوقائع الجزئية .

ورغم هذا النهج الملق الذي عطل في النهاية كل ارادة لدى الانسان كما رأينا فان الدكتور يعبود فيزعم ان من الاسس العميقة في بناء الثقافة العربية الصحيحة ان تكون للارادة اولوية منطقية على العقل فالارادة فعل .. ولم يبق للعقل اذن من مهمة يؤديها الا ان يرسم الطريق المؤدية الى تحقيق النماذج العليا المنصوبة امامنا .. فليختلف الناس كيف شاؤوا .. لكن الغايات مرسومة لهم « !! مسكين هو العقل لقد وقع في فخ الدكتور ومسكينة هي الارادة .. اعدام بلا جريمة ، من اجل ان يمضي بنهج الدكتور منعما مطمئنا الى المصير بعد تعطيلهما .

الا انه ما دام عالم القيم فوق عالمنا « الزائل !! » وما دام عمل العقل مقصورا على الخدمة في ردهات هذا العالم الزائل فلا بد من واسطة اخرى للاتصال بعالم القيم .. حسنا ! انه الحدس (وهو كما ترون اكرم من العقل !) . الحدس الذي لا تمتلكه الا الخاصة جسدا

وبالتالي يمكننا ان نفهم ان الرعاع الذين لا يمتلكون وهم غالبية المجتمع لا يستطيعون السمو الى مرتبة الخاصة ولا يستطيعون ان يكونوا اكثر من خدم في ردهات السادة النورين بالكشف . عليهم التنفيذ . وعليهم الاقتناع بذلك فكلمهم الى زوال والغاية محتمة فلا داعي للشورات ولا اليونانية وينتهي الى « ان حدس الامام الغزالي انتصر على ثقافة العقل يمت الى عالم القيم بصلة .

ثم يستشهد على صحة « آرائه ! » بتحليل مبسوط لوقف « الهيكل العام للثقافة العربية » في مواجهته لثقافة غربية قديمة هي الفلسفة اليونانية وينتهي الى « حدس الامام الغزالي انتصر على ثقافة العقل فلاذ بما الفه واستراح اليه .

ولن اقول ان الدكتور قد شوه كثيرا من الحقائق التاريخية فهو اصلا لم يقترب منها الا في عنوان « الحدث العام المناقش » وبقي يصلح ويجول في اركان هيكله دون ان يخرج البنا بظائل .

وما دامت الامور تسير في العالم بمثل هذه السكونية فان الحادثة التاريخية ترجع على نفس الصورة حيث تفاجئنا - ونحن مطمئنون في هيكلنا - ثقافة العصر التي هي من ابداع الغرب وتنقسم الاستجابات الى نفس الاقسام في المرة الاولى : القبول المطلق والرفض المطلق ، وبين بين ، مع فارق صفيير هو ان المنتصر هنا كان الحالة الثالثة بعد ان كان الحالة الثانية هناك . ولكن مع بقاء الهيكل الثقافي السرمدي الذي لا يتغير . وفي مطلع الفقرة الرابعة يخيل للقارىء ان الدكتور سيصل الى عرض عميق لمفهوم العصر فهو يقول « انه انما هو خضم من الاحداث والكائنات تتشابك حيننا وتتفكك حيننا اخر وهي ما تنفك في حركة دائمة . » الا ان منطق السكوني يعود به الى التسطيح فورا حيث يرى ان العصر يختلف من فرد لآخر فعصر الفلاح غير عصر الباحث عن البترول مثلا ، وان عاشا في نفس الزمان والمكان . وهكذا يتراجع مفهوم العصر عنده حتى يصبح مجرد رؤية ذاتية لدى الفرد ، دون اي ادراك للعوامل الموضوعية الخارجية التي تسلك جميع الافراد في اطار تأثيراتها وتناجها .

وعند تساؤه عن طبيعة ثقافة العصر التي نواجهها يقدم لنا مثلا ساذجا عن عدم اهمية صواريخ الفضاء بالنسبة لنا اذا قسناها بخطر اسرائيل فالاولى لا تعيننا .. وينسى العلاقات القائمة بين وضعنا مع اسرائيل واستخدامات تلك الصواريخ التي لها مساس مباشر وحيوي بذلك الوضع . اما الساذجة المثيرة للشفقة حقا فتظهر جلية عندما يوضح لنا ان ما اثار قلقه وازعج اطمئانه في هيكله الثقافي السعيد فهو :

اولا : القفزة الهائلة لمولم الطبيعة وثانيا خشيته على الدين ان تهتز مكانته في نفوس المؤمنين !! اما اباداة الشعب العربي وتشريده واخذ ارضه وكل ما يتعلق بذلك فشيء بسيط تافه لا يستحق اشارة قلقه الكريم !!

ثم يفصل لنا فيما اوجز مارا بالاستجابات الثلاث المذكورة آنفا مشيدا بطريقة المزج بين ثقافة العصر وثقافة العرب الاصيلية هذه الطريقة التي تأخذ من العلم نتائجه لا اصوله لان الاصول لا تتفق مع البناء الثقافي العربي ! اي والله !

ثم يناقش موضوع القومية معلنا بانها بدأت قوميات اقليمية ثم تطورت الى قومية عربية مشتركة (دون ان يتكهن من الملاحظة ان القوميات الاقليمية قد طرحت لاسقاط القومية العربية .. ولم تكن مرحلة اليها .. ذلك ان منطق ومنهجه لا يسمحان بذلك !

ثم يناقش موضوعا يتعلق بالقومية وهو اللغة التي لا يخالفه احد في ضرورة الاهتمام بنصحاها ، وان كان لا يملك الا ان يربطها بمنهجه القبلي الساكن . ثم ينتقل الى موضوع الحرب فيذكر عبارة الصراع السياسي دون اي تعليق او مناقشة او تحليل كان الامر قضية لا تستحق النظر ، بل هو يسرع للخوض في موضوع اهم هو « الشمولية في السياسة والصناعة ومواجهتها بموقف يصون للافراد حرياتهم حتى لا تنجر في التيار » ولا يبدو ان هناك اي ارتباط بين الحرية والقومية واللغة فكل منها على ما يبدو شحاذ ينتظر نعمة الدكتور في ركن منعزل من اركان « الهيكل » !! وتراه يقفز من الوجودية الى رأي ماركوز في الانسان ذي البعد الواحد متجاهلا اننا لا نملك هذه « الشمولية »

والآن ما هي ملامح اصالة الامة العربية وما هو المنهج البديل وكيف تكون استمرارا للاصالة فيها بما تبعد من فكر وثقافة جديدين؟ ان الاجابة على هذه الاسئلة تقتضي عودتنا الى تاريخنا ومعالجته معالجة دياكتيكية لا بد لها ان نلاحظ ما يلي :

١ - كان المجتمع الجاهلي مجتمع رعي مزقته حروبه القبلية وكانت الحياة فيه تقوم على استثمار الاستقرابية فيه للعبيد والفقراء بزجهم في الحروب لمصلحتهم وباستخدامهم من جهة اخرى في اعمال السلم .. وقد كانت الظاهرة الصحية والاصلية فيه هي ظاهرة الصلابة التي كانت تمردا على نظام القبيلة الظالم وقد فسلت هذه الظاهرة نتيجة لعدم نضج الظروف المحيطة بها سواء الاقتصادية منها او العقلية التي كانت عقلية ولاء للقبيلة لم يستطع الصعاليك الافلات نهائيا من دائرتها ولهذا سعوا لتغيير مواقعهم داخل نظامها ولم يسعوا لتغيير النظام نفسه .

ان قيم الشجاعة والكرم والمروءة وغيرها انما كانت وليدة الحاجة الاجتماعية ولم تهبط من فوق كما احب الدكتور ان يفنعا

٢ - ان هذا المجتمع القبلي كان يعاني من ضغوط عسكرية للامبراطوريات المجاورة على اطراف الجزيرة بحيث حدثت غسدة انتفاضات تحريرية ضدها منها : حركة سيف بن ذي يزن .. ومعركة ذي قار التي باركها الرسول وصرح بانها نصر قومي عربي . وهكذا يمكن ان نقول ان المجتمع الجاهلي قد شهد حركة قومية وطبقية بشكل ما

٣ - كانت الامبراطوريات المجاورة تعاني داخليا من التمزق الطبقي فيها اذ كان نظامها الصبودي يدخل طور احتضاره

٤ - ان جذب الجزيرة العربية وقرها وطوح الانسان العربي قد خلقا مراكز مدنية تعتمد على التجارة مما اوجد ارسناتقراطية مالية ذات نفوذ قوي في الجزيرة مقابل فئات واسعة من المساكين المستغلين الذين بدأت اوضاعهم تشكل تحديا حقيقيا للسادة المترفين وخاصة في قريش . لقد تحطم النظام القبلي بالنسبة لهذه المراكز وخلقنا اوضاع اخرى اكثر تقدما ونضجا وبدا المجتمع الجديد يشعر بالحاجة لنظام يساير هذا التقدم .

٥ - وهكذا ظهر الاسلام - دين المجتمع المنظم - لحل مجموعة من التحديات هي ا - التحدي القومي - ب - الحروب الاهلية القبيلة . ولم يكن بالامكان حل هاتين المساليتين الا عن طريق خلق الدولة المركزية القادرة على الردع . ج - التحدي الطبقي في المجتمع الجديد وتحقيق عدالة اجتماعية . ولم يكن بالامكان حل هذه المسألة الا بتشريع اجتماعي متفوق .

٦ - ان تعاليم الاسلام تندرج في طائفتين كبيرتين تستند ثانيتهما على الاولى : ا - مجموعة العقائد الروحية التي لا تختلف كثيرا عن عقائد الديانات الموحدة السابقة . ومركز هذه العقائد جميعا هي فكرة الاله الواحد الكامل . والممارسات الشعائرية هي علاقة ذاتية محضة بين الفرد وربيه . وهي ليست غاية بذاتها ، انها وسيلة ليصبح الفرد عضوا نافعا في المجتمع فهي بالتالي ذات وظيفة اجتماعية ، وقد اوضح الرسول (ص) ذلك بقوله : الخلق كلهم عيال الله واحبهم الى الله انفعهم لعيله . وقوله الدين المعاملة ..

ولم يسمح الله سبحانه لرسوله باكره الناس للنزول على رآيه: فذكر انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر . وهكذا فهذه الامور قضية فردية . وانما الشيء الاهم هو :

ب - مجموعة المبادئ الناظمة لعلاقات المجتمع الجديد وهي صلب الدين وحركته المتقدمة وهي تشمل كافة التشريعات التي هدفت لتحقيق ثورة ديموقراطية (المؤمنون اخوة - احكموا بالعدل - الناس سواسية) انها شعارات المرحلة ضد مستظلي قريش ومترفيها

والقرآن والحديث مليان بهذا الهجوم الطبقي المتواصل على الاغنياء المستغلين .

وطرح الاسلام اساس الشورى كوسيلة للحكم كما في ثورة شعبية تعتمد على الارادة الحرة للجماهير ولكن هذا المبدأ عطل للاسلاف كما عطل غيره من المبادئ الثورية في الاسلام بعد حين .

في الصناعة كما يسميها وان تطورنا لم يخلق لنا هذه التحديات بعد ، ولا يدري احد كيف يوفق بين « ايمان » وبين الوجودية التي لا ينسى ان يكرسها باسطر ، ما دامت تؤكد الفردية وتضعها بمواجهة الجماعة التي هي سمة تقدمية في هذه المرحلة من العصر .

ولا يدري احد كيف يجعل الانسان يأخذ ويدع باختياره الحر بعد ان جعله قبلا مجرد اداة تمر من خلالها الحوادث دون ان تحفل به ودون ان يكون له اثر .. انه خلط لا يفسره الا سقم المنهج واستحالة برئه!! وهو لا ينسى ان يذكرنا قبل الانتقال الى الفقرة الثامنة انه قد سمع بذلك المبدأ الذي اسمه النسبية . اما كيف يخلص منه الى ثبات القيم الاخلاقية رغم ايمانه بان العصر عصر النسبية فتلك هي المسألة العويصة والويل للمتحرفين .. ولكن متى ؟ حسنا !! انه يوم الحساب !

ونسأل بعد الذي قدمناه - الكلام للدكتور - ما موقف الثقافة العربية الحديثة في مواجهة العصر فنجيب : هو موقف الراض للمبادئ والجذور ولا بأس عليه بعد ذلك ان يقبل بعض النتائج متوترة عن مبادئها ويقبل بعض الثمار مستغنيا عن جذورها « واذا ترجمنا هذا القول الى اللغة العملية - باعتبار انه لا يمكن فصل الثقافة عن الحياة - فان ذلك يعني ان نقبل البراد والفسالة وغيرها من ثمار علوم الطبيعة ونرفض ان نتعلم او ان نأخذ بمبادئ تلك العلوم لانها كفر والحاد . وبلغة الاقتصاد : لنبق سوقا للامبريالية خوفا على ايماننا من مبادئ العلوم !!

ارأيتم ما هي النتائج التي تنتهي اليها المناهج الرجعية تحسنت ستار هذا النوع الغريب من الايمان ؟ ارأيتم انه ليس هناك اي ذكر للصراع المصري مع الصهيونية والامبريالية وهو صراع لو تعلمنا فيه بمنهج الدكتور واخرنا الامور ليوم الحساب لانتهينا وانتهى معنا الايمان وهيكل الثقافة العربية الابدي دون ان تظهر تلك الخوارق التي تلي الاسباب العلمية والتي يعدنا بها في ثانيا مقاله !!

ولكن .. لماذا العجلة ؟ فلا بد لنا من تبين سمات ومضار هذا المنهج ، ثم ما هو البديل الذي نطرحه كمنتمين الى حركة التقدم العربية والانسانية ؟

سمات هذا المنهج ومضاره :

- لقد رأينا كيف يفصل الدكتور عالم القيم عن عالم الناس وكيف فصم الروابط الجدلية بين حركة القيم والثقافة وحركة التطور الاجتماعي ، وجعل الاولى اسمى من الثانية وغاية لها . واقل ما يقال في هذا الكلام انه تعطيل للابداع الاجتماعي الثقافي والاخلاقي وانه لو صح ثبات القيم الاخلاقية وخضوع عالم الناس على النحو الذي ورد لما تقدم الانسان خطوة واحدة عن عصور الوحشية الاولى ونحن لا نملك الا ان نعتبر هذا الطرح وامثاله ، انما يرمي الى غاية الحفاظ على العلاقات الراهنة في المجتمع العربي وبالتالي المحافظة على مكانة المستقبلين وزيادة استقلالهم .

- ان هذا الفصل بين عالم القيم وعالم الناس يحيل جوهر الصراع الانساني الكبير الى صراع بين القيم صراعا فكريا مجردا ، ولعلي لست في حاجة الى تأكيد اننا نصارع القوى المادية الفاشمة لدى القرب الامبريالية وركيزته اسرائيل قبل كل شيء وان الصراع الفكري تابع وملحق بالصراع الاول وخادم له . ومنهج الدكتور يساهم مساهمة كبرى في طمسه وتضليل جماهيرنا عنه .

ان هذا الصراع نتيجة حتمية لتطور البشرية الراهن وليس شيئا قليلا مقررنا .

- ان هذا الفكر المتحجر السكوني يعزلنا عن العالم ويطمس قضايانا ويؤخر تفاعلنا الثمر مع القوى الخيرة فيه .

- ان هذا المنهج يخلق ويكرس النزعة الاستسلامية لدى الجماهير الفقيرة المضطهدة ويؤخر ثورتها ويحكم طوق الجهل عليها « فليختلف الناس ما شاءوا .. ولكن الغايات مرسومة لهم » !! انه بالتالي يجعلهم قبورا تسمى لا احياء باحثين عن انسانية اكثر تقدما وازدهارا - ان هذا المنهج مختلف اختلافا جذريا مع الاسلام ، اقصد الاسلام الذي جاء به الرسول (ص) وطقه ابو بكر وعمر بعده لا الاسلام الذي صنعه الرجعية العربية فيما بعد مقاسا على قد مصالحها . وهذا ما سألوا وضعه .

لقد حارب الاسلام الربا والاحتكار والغش واشرك الفقراء مبدئيا في اموال الاغنياء لان المرحلة لم تكن تسمح باكثر من ذلك واشرك الناس جميعا في بعض معادن الارض . واعتبر العمل القيمة الاساسية على المستويين الفردي والاجتماعي وحرر المرأة وقرنها الى الرجل في كل الامور .. وهذه حالة لم يكدها اي نظام يتستر بالاسلام اليوم !!

وقد دعا الاسلام ايضا الى دراسة الطبيعة والتفكير فيها والى طلب العلم (العلم الحقيقي وليس علم البلاغة ومواقع «حتى») وكرم العلماء في كثيرين من المواقع .. الشيء الذي يغضب سيدنا الدكتور فلا يسمح لنا ان نأخذ من علوم الطبيعة الا بعض ثمراتها !!
٧ - ان الاله سبحانه في نظر الاسلام هو القوة الكاملة القادرة الرادعة عن الشر الذي هو بالتحديد عدم تنفيذ تلك المبادئ الاجتماعية ، والداعية الى الخير الذي هو بالتحديد تنفيذ تلك المبادئ وليس الشر شرا مطلقا ولا الخير خيرا مطلقا ، يتطامن فوق الحاجات الاجتماعية كما شاء لهما الدكتور الباحث .

٨ - ان نقطة الضعف المميتة ، هي ان الفرد قد ترك وحيدا مع عمق ايمانه ، من اجل تنفيذ هذه المبادئ ، وان المسلمين المشيعين بفكر الاسلام قد استاصلتهم الحروب الاولى قبل ان يتروخ الاسلام فكثير ثوري (طبعا من داخل اطاره التاريخي) مما جعل ارتداد الارستوقراطية عليه (تلك التي التحقت به لتسخيره لمصالحها) امرا اكثر سهولة ويسرا .

٩ - ان الاسلام لم يعتبر تنظيمه للمجتمع نهائيا بدليل فتح باب القياس والاجتهاد ، فلقد كان الشرع الاسلامي يعرف ان الاوضاع الاجتماعية لا يمكن ان تسكن على حالة بعينها لا تتجاوزها وهكذا كان يمكن تطوير هذه المبادئ وفقا للحاجات الجديدة لولا التطور العكوس الذي اصاب الحياة العربية فيما بعد .

١٠ - كانت خلافة ابي بكر الصديق استمرارا لنهج الرسول فهو الذي ثبت نهائيا دعائم الدولة المركزية وبدأ بإرسال الجيوش الزودة بالمبادئ الجديدة لهدم امبراطوريات العبيد المتفتنة واداء رسالته الصرب التقدمية .

١١ - كانت خلافة عمر تنمة لانجاز المهمة الحضارية السابقة واتماما لها ، وحسينا لتعرف غاية الاسلام في التنظيم الاجتماعي ان نذكر سنة عمر في الارض المفتوحة اذ حظرت تملكها على الافراد واعتبرها ملكا عاما للمسلمين ومن يدخل جديدا في الاسلام عليه بضم ارضه للملكية الجماعية .. فاذا عرفنا ان هذه الارض الؤمة كانت وسيلة الانتاج الرئيسية فاية آفاق يفتحها هذا المسلم العظيم امامنا ؟ واي صورة للمجتمع التعاوني تلك التي كان يخط لانجازها لو ظل في عمره بقية ؟ (طبعا لا نستطيع الا ان نفترض ان تنظيم تلك الملكية الجماعية امر لا بد منه لو استمرت) .

١٢ - نستطيع الان ان نقول ان الاسلام كان مساهمة حضارية كبرى في نقل البشرية الى مرحلة متقدمة وانه كان ثورة قومية وطبقية وانسانية باوسع مداليل هذه العبارات وان العرب الذين ملكوا هذا التفوق الحضاري في ذلك العصر كانوا ثواره الحقيقيين ، وبذلك نفهم كيف فتحوا هذه الرقعة الهائلة من العالم في زمن قليل بعددهم القليل ، ونفهم ان غاية رسالتهم كانت ارضية محضه رغم منهج الدكتور وآرائه .
١٣ - ولكن .. ما الذي حدث بعد ذلك ؟ لنقل بكلمة واضحة ان هذا الاسلام الثوري لم يبق منه شيء .. وحتى يكون ثمة مجال للثامم الجائر ، هذا هو الدليل :

تسلم ارستقراطيو قريش قيادة الدولة وعندما اوشكت الفتوح على الانتهاء استقر الفاتحون وبدأوا يتحولون الى طبقة من ملاك الارض الجدد تعيش على اعطياتها من بيت المال من جهة وعلى استغلال المغلوبين من جهة اخرى . وهكذا ضربت سنة عمر في تملك الارض . وفرضت الجزية على المسلمين من غير العرب واعتبروا طبقة ادنى فأسقط بذلك شعار المساواة . ونما الشعوب بالتفوق العربي . نمو شوفينيا سقط

معه شعار الاخوة .. واخذت ارستوقراطية قريش المالية تتحول الى طبقة من النبلاء (امراء . قواد جيش . وزراء نقيب اشرف ...) وعلى رأسها الخليفة الذي اصبح امبراطورا يورث الخلافة لابنه ويحكم حكما مطلقا تنكف معه المبادئ الاجتماعية التي سنها الدين وفقا لرغباته ومصالحته ومصالحة الطبقة التي يرأسها فهو يتصرف بما في بيت المال ويقطع الارض لمن يريد ويقتل ويصادر الممتلكات ويفعل ما يشاء بدون رقيب .

وهكذا سقط مفهوم الشورى وسقط شعار العدالة وخيم البؤس من جديد على حياة الطبقات المستقلة الدنيا .

وهكذا نرى ان القيم الثورية الاولى قد سقطت وحلت محلها قيم جديدة متناسية مع مصالح الطبقة الحاكمة نظر لها وكرسها اولئك الذين ربطوا دينهم بتلك الطبقة .

ان استمرار رؤيتنا هذه لمجريات التاريخ العربي سيقدم لنا تفسيريا حيا لكل ظواهره وخاصة للمقلية الاجتماعية المترامية بتأثير القسر الذي رافق الانحراف عن الاسلام وهذه العقلية أصبحت تميز بجبنها واستسلامها وانتهازيتها وتواكلها وقبولها للعبودية .. مما لا يتفق باية صورة مع ما اراده الاسلام للفرد والمجتمع .
ويعود السؤال الاخير : ما بالنا نحن الان ؟

ان بيننا وبين الاسلام الحقيقي ثلاثة عشر قرنا وثيف والحياة قد تطورت وتعدت ومع ذلك فالظاهرة تعيد نفسها ديالكتيكا بصورة أعلى : اننا نعيش في اطار مرحلة عبودية جديدة هي الامبريالية ، ونحن على ابواب انهيارها ، وهذه الامبريالية تضغط بثقلها علينا فتسلب ثرواتنا وتحتل ارضنا وتمزق قوانا وتشرذ شعينا وتبيده ، وتهددنا باستمرار وتحاول ان تشوه عقولنا وثقافتنا بمختلف وسائلها القادرة ونحن في الداخل تسلب جماهيرنا الفقيرة طبقات مستقلة مرغمة بحكم طبيعة المرحلة ان تتحالف تحالفا ذليا مع تلك الامبريالية فتساهم في افقارنا وتمزيق قوانا .

أفيمكن لتحرركنا الاجتماعي الا يكون قويا طبيا متكامل في المرحلة الراهنة ؟ أنستطيع الا ان نحارب من اجل انتصارنا وانتصار مبادئنا كل اعدائنا كما فعل المسلمون اول وكل ثوار العالم ؟ (يرجى ان ينظر للمقارنة على ان الفاية منها الاستدلال لاستعادة حيثيات الوقائع) .

وما دام الامر كذلك امكننا الا ان نتحالف مع كل القوى التي تحارب الامبريالية والتي تسهل انتصارنا ؟ وبالتالي الا ينبغي ان يكون عملنا الاساسي هو اسقاط العبودية الجديدة كما حاول الاسلام اسقاط العبودية القديمة ؟

ثم الا يرى الدكتور ان هذا التحرك الحضاري الجديد سيخلق قيما جديدة نابعة منه باعتبار القيم معايير للسلوك توجد بوجوده وتنتهي بانتهائه دون ان تتمكن من الوجود الا به ؟

انني اؤكد ان هذا هو اطار ابداع للمفكرين والادباء والفنانين وهذا الابداع جديد لانه متناقض مع الحاضر الراهن الذي هو امتداد لسقوط الاسلام الثوري واصيل لانه منسجم تماما مع الروح الثورية لمبادئ الاسلام الاجتماعية ومطور لها (وهذا لا يعني انه سيستعيدها تماما ولكنه سيكون امتدادا متطورا لها)

ان ما يتحدثنا الان ليس العلم ومبادئه . ولكنه استخدام الامبرياليين الشرير للعلم ، ولن نستطيع ان نجابه العلم الا بالعلم وما دمنا لا نستخدم الا « بعض ثمراته » فنحن سنبقى على هامش الحضارة ، طفيليين لا اثر لنا وهذا ما لم يرد الاسلام لاتباعه .

ان الاصلالة في تاريخنا هي تلك الثورة على الظلم وذلك العقل المتحرر المهتم بانقاذ العالم جميعا من براثن الطفافة ولن يكون استمرار اصلالتنا الا بهذا . ولن يكون ادب حقيقي وفن وفكر حقيقيين الا اذا كانت الفاية منها جميعا تكريس هذه الاصلالة وثبتتها . وبهذا المعنى لن يكون هناك اي فرق بين الاصلالة والتجديد اطلاقا .